عليه، بل زادت تعقداً وخطورة، وظلت راسية بكل ما فيها من ثقل مسؤولية على كاهل بيلاطس وحده.

أمام منبر بيلاطس من جديد

دعا بيلاطس رؤساء الكهنة والأقـــطـــاب والشعب، وقال لهم: لقد قدمتم إليّ هذا الرجل على انه يفتن الشعب. وها أنا ذا قد بحثت في أمره أمامكم فلم أجد عليه شيئاً من الإجرام التي تشكونه بها. ولا هيرودس أيضاً قد رده إلينا. فهذا الرجل لم يأت شيئاً يستوجب الموت.

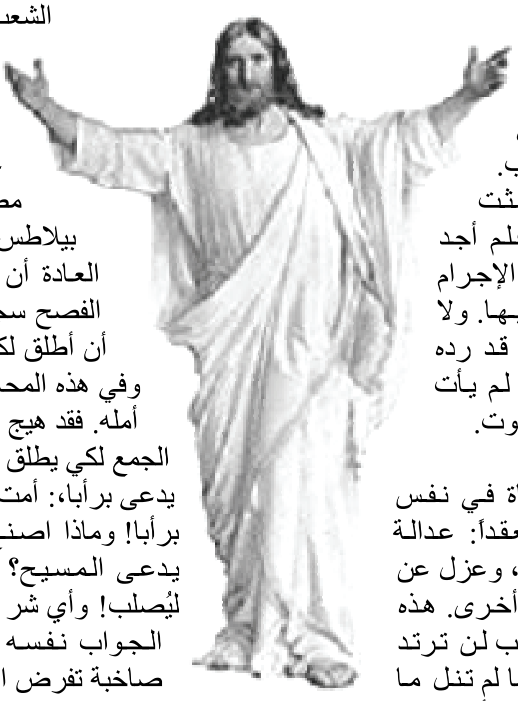

المأساة في نفس بيلاطس تزداد تعقداً: عدالة وضمير من جهة، وعزل عن منصب من جهة أخرى. هذه الشرذمة من الذئاب لن ترتد عن دار الولاية ما لم تنل ما تطلبه. وإذا لم تنله وأرغم إذعاناً لصوت ضميره، على تبديدها بالقوة، فهناك الثقة عليه، وهناك الشكوى تُزاد على ما تقدمها لدى القيصر. وهذه امرأته ترسل إليه وهو في هذا الجو الخانق من يقول له: لا تسيء إلى ذلك الصديق فاني اليوم توجعت له كثيراً في الحلم. فتتكدس الظلمات في نفسه أكثر فأكثر، لان الأرستقراطية الرومانية اليونانية، على ضآلة تدينها كانت شديدة التمسك بالخرافات. فالأحلام ومحاولة معرفة الغيب بشتى طرقها، كانت من العناصر الهامة في تسيير حياة الأفراد فيها، يستسلمون إليها والى المتاجرين بها الاستسلام الأعمى.

وكان من عادة الوالي أن يطلق في عيد الفصح، السجين الذي يشاؤه الشعب، إكراما للعيد الأعظم وإحياء لذكرى نجاة إسرائيل من عبودية أسياد مصر. فقال بيلاطس لليهود: إن من العادة أن أطلق لكم في الفصح سجين، افتريدون أن أطلق لكم ملك اليهود؟ وفي هذه المحاولة أيضاً خاب أمله. فقد هيج رؤساء الكهنة الجمع لكي يطلق لهم لصاً وقاتلاً يدعى برأبا،: أمت هذا وأطلق لنا برأبا! وماذا اصنع بيسوع الذي يدعى المسيح؟ فأجابوا كلهم: ليُصلب! وأي شر عمل؟ فيسمع الجواب نفسه وبإرادة عنيدة صاخبة تفرض الموت فرضاً ولا ترى سواه: ليُصلب! ليُصلب!

لقد تبين لبيلاطس أن الشعب لا رأي خاص له بهذه الدعوى، فقد هيجه الرؤساء يدفعهم الحسد. فهذا الشعب المسيّر سيثير فيه عاطفة الشفقة والشعور الإنساني، وهؤلاء الرؤساء سيُروى غليل حسدهم وحقدهم بجلد يسوع. دفع بيلاطس يسوع إلى الفرقة التي تلازم الولاية وأمر جنودها بجلده. رأى الجلادون أن يلهوا بيسوع، فألبسوه ثيابه،